الفتح الاسلامى [1]

للأستاذ على الطنطاوى

« الفتح الاسلامى » أكبر لغز من ألغاز العبقرية ، وأروع أُحْجِيَّة من أحاجى النبوغ ، وأجل مظهر من مظاهر العظمة فى تاريخ البشر . ولقد مرت عليه إلى اليوم قرون طويلة ، وأعصار مديدة ، ارتقى فيها فن الحرب ، وتقدم فيها البشر أشواطا فى كل ميدان من ميادين الحضارة ، وغاص المؤرخون فى أعماق الحوادث التاريخية ، فكشفوا أسرارها وعرفوا أسبابها ، فبدت لهم هينة ضئيلة ، بعد أن كانوا يرونها لغزاً لا يحل ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا سر الفتوحات الاسلامية — ولم يدركوا كُنْهَها . وستمر قرون أخرى وأعصار — قبل أن يكشف ذلك السر ، وقبل أن يرى تاريخ البشر حادثاً أعجب وأعظم من « الفتح الاسلامى »

إن الحوادث العظيمة فى التاريخ على اختلاف مظاهرها وتنوع أشكالها ، لا تعدو أن تكون واحدة من ثلاث : إما أن تكون عظمتها فيما أورثت الانسانية من حضارة وعمران ، وما رفهت من عيش الناس ، وما أفادتهم من رغد ونعمة وترف ، وإما أن تكون هذه العظمة فيما خدمت به العقل البشرى ، وأمدته بأسباب القوة والنضوج ، ورفعت من تفكير الناس ، وأدنتهم من المثل العليا التى يطمحون إليها ، بما فتحت عليهم من أبواب الثقافة وسُبل المعرفة ، وإما أن تكون عظمة الحادث التاريخى فى ذاته ، وفيما ينطوى عليه من بطولة نادرة ، وقدرة عجيبة ، وجلال لا يعرفه التاريخ إلا قليلاً ؛ أى أن العظمة إما أن تكون عظمة حضارة وعمران ، أو علم وفكر ، أو بطولة وحرب .

« والفتح الاسلامى » أعظم الحوادث التاريخية كلها ، فى أبواب العظمة كلها ، لا يدانيه فى ذلك حادث فى تاريخ الشرق والغرب ، القديم منه والحديث

أما فى الحروب فان التاريخ يعرف كثيراً من الفاتحين ، منذ عهد الاسكندر ومن قبل الاسكندر ، إلى عهد نابليون ومن بعد نابليون ، ولكنه لم يعرف فتحاً أوسع ولا أسرع من « الفتح الاسلامى » الذى امتد فى اثنى عشر عاماً فقط من طرابلس الغرب إلى آخر بلاد العجم ، وحاز مصر وسورية وفارس كلها . . على أن ميزة الفتح الاسلامى ليست فى السعة والسرعة وحدها ، ولكن ميزته الكبرى أنه فتح أبدى ، فلم يعرف عن المسلمين أنهم دخلوا بلاداً وخرجوا منها [1] ؛ ذلك أنهم لا يفتحون البلاد بسيوفهم شأن كل الفاتحين ، ولكنهم يفتحون القلوب والعقول ، بعدلهم وعلمهم ، فلا تلبث البلاد المفتوحة أن تندمج بالمسلمين ، وتصبح أغير على الاسلام من المسلمين الفاتحين ، بينما ترى البلاد التى فتحها غيرهم تبقى خاضعة لهم ما بقى السيف مصلتاً فوق رؤوس أهلها ، فاذا أحسوا من الفاتحين غرّة ، وآنسوا منهم ضعفاً وثبوا عليهم فطردوهم ، وعادوا إلى ما كانوا عليه ، حتى أن أمريكا على رغم أنها كانت خالية إلا من قبائل لا شأن لها ، وليس فيها دين يناوئ ديناً ، أو عادات تصادم عادات ، وعلى رغم أن أهلها الذين استعمروها إنكليز كالانجليز الحاكمين ، فانهم وثبوا عليهم وحاربوهم حتى نالوا استقلالهم ؛ ولا تجد اليوم أمريكياً واحداً يريد الانضمام إلى إنكلترا (الأم الكبرى) ، بينما تجد كل مسلم فى الصين أو الهند أو جاوا أو القسطنطينية كل مسلم صحيح ، يتحسر على الوحدة الاسلامية — ويسعى إليها — ولا يقبل بها بديلا ، على رغم ما أحدثوا لهم من كذبة القوميات وبدعة الوطنيات ، وما أقاموا بين الاخوان من سدود ، وما فصلوا به بينهم من حدود ، وما مرّ على هذه التفرقة من سنين وأعوام . ذلك لأن « الفتح الاسلامى » فتح أبدىّ ، مستقر فى القلوب ، لا تقوى قوة بشرية على انتزاعه ، وهذه هى ميزته التى امتاز بها على كل فتح فى التاريخ

أما فى العلم والثقافة ؛ فقد كان « الفتح الاسلامى » أكبر حادث علمى ، لأنه حمل إلى البلاد التى فتحها علم السماء والأرض ،

---

(١) فصل من كتاب (عمر بن الخطاب) تأليف الشيخ على الطنطاوى وأخيه ناجى الطنطاوى ، وقد صدر اليوم الجزء الأول منه فى (٣٦٨) صفحة من القطع الكبير ، وهو يطلب من (المكتبة العربية بدمشق) وسيصدر الجزء الثانى قريباً . والكتاب على نمط كتاب (أبو بكر الصديق) وأسلوبه

(١) الا الأندلس وما يلحق بها ، وقد بقيت روح العرب المسلمين فى الأندلس . برغم نصرانيتها واسبانيتها ، وبرغم ما حاربوها به من وسائل وحشية همجية — حتى ظهرت أخيراً على ألسنة كبار شعرائها ، وأعاظم ساستها ، واقرأ نبأ ذلك فى (حاضر العالم الاسلامى) الكتاب الذى ينبغى ألا تخلو منه مكتبة مسلم

لخروعقولها بالتوحيد ، وأعتقها من عبودية الأحجار والأشجار ، والنيران والأخشاب ، والقسس والأشراف . ثم وضع في أيديها القرآن الذي يأمر بالتفكر في خلق السموات والأرض ، ويحفز إلى البحث والنظر والاستدلال ، والسنة التي ترغب في العلم وتدعو إليه ، وتجعل طلبه فريضة على كل مسلم ؛ وكان الفاتحون أنفسهم علماء ، فما هي إلا أن فرغوا من الحروب حتى وضعوا السيف وحلوا القلم ، وألقوا الدروع وأخذوا الكتب ، وجلسوا في المساجد (والمساجد يومئذ جامعات المسلمين وجامعاتهم العلمية) يدرسون ويقرئون ويبحثون ، فكان من تلاميذهم المفسرون والمحدثون ، والفقهاء والأصوليون ، والأدباء والنحويون ، والقصاص والمؤرخون ، والفلاسفة والباحثون ، والأطباء والفلكيون ، أولئك الذين تصدروا بعد للتدريس في جامعات الشرق ، وجامعات الأندلس ، لجلس بين أيديهم البابوات ، والملوك ملوك أوربا ، وكانوا أساتذة العالم الحديث

فكان من ثمرة الفتح أن هذه البلاد الأعجمية — التي كانت تئن في ظلام الجهل والظلم — لم تلبث أن ظهر منها علماء فحول ، كان لهم الفضل على العقل البشري ، ولا تزال أسماؤها خالدة ، تضيء في جبين الدهر

ومن لعمري ينسى البخاري والطبري والأصبهاني والهمذاني والشيرازي والسرخسي والمروزي والرازي والخوارزمي والنيسابوري والقزويني والدينوري والسيرافي والجرجاني والنسائي وغيرهم وغيرهم ممن لا يحصيهم عد ؟ ألا يشعر كل مسلم بأن هؤلاء وأمثالهم هم علماء الملة وأعلامها ؟ ألا يحل كتاب البخاري أسمى محل من نفوسنا ، ونتخذه حجة بيننا وبين الله ؟ ألا يؤلف هؤلاء العلماء صلة من أوثق الصلات بيننا وبين فارس لا يستطيع أن يفصم عراها مائة حكومة من مثل الحكومة الحاضرة ، التي تستن في فارس سنة (هذا الآخر ...) في تركيا

هذا هو فضل الفتح علينا وعلى الأجيال الآتية — أما فضله على العقل البشري — فحسبك أن تعلم أنه لولا الفتح الاسلامي ، ولولا علماء المسلمين وفلاسفتهم لم يكن عقل القرن العشرين

أما في الحضارة والعمران ؛ فللفتح الاسلامي أكبر الأثر في نشر الحضارة وتوطيد العمران ، والعمران طبيعة في العربي المسلم ، فلم يمض على فتح المسلمين بلاد العراق إلا سنوات حتى أسسوا مدينتين كبيرتين كان لهما الفضل والمنة على الحركة العلمية والأدبية في العالم كله . فضلاً عن أنهما كانتا قاعدتين حربيتين من أكبر القواعد الحربية ؛ وما استقرت أقدامهم في البلاد حتى شرعوا في بناء المدن الكبيرة ، والقصور العظيمة ، وإنشاء أروع آثار البناء ، حتى كانت بغداد وسر من رأى ، وكانت دمشق من قبل ، والقاهرة ومدن الأندلس من بعد ، أعجوبة في فن العمران ، وها إن أثراً صغيراً من آثار العرب — ليس بأعظمها ولا أكبرها — لا يزال إلى اليوم محط ركاب الرحال من أهل العلم ورجال الأدب ، ولا يزال مصدراً مالياً لحكومة من كبار حكومات أوربة تعيش إلى اليوم بفضل العرب ، هي حكومة أسبانيا . ولقد حاول الانكليز على قوتهم وغناهم — في هذا العصر الذي تيسرت فيه أسباب كل شيء — أن ينشئوا مثل « الحمراء » فأنشأوا قصراً في سيدنهام يعد من أعظم المباني المصرية وأجلها ، ولا يزال دون الأصل بمراحل [1] فكيف عن بني الأصل في ذلك العصر الغابر ؟

وكيف لو بقيت « الزهراء » التي حيرت رسل الافرنج ، أو بقي « التاج » في بغداد ، أو « دار الشجرة » التي أدهشت وفود الروم ؟

* * *

إنه ما من شك لدى المنصفين من المؤرخين ، أنه لولا قيام الحضارة الاسلامية في القرون الوسطى [2] وازدهارها في الشرق حين كانت أمم الغرب في ظلمات بعضها فوق بعض ، لم تقم الحضارة الحاضرة ، ولم يتمتع البشر اليوم بثمراتها

فالفتح الاسلامي إذن أعظم حادث في البطولة والفكر والعمران . وهو لغز غامض حير نابليون (نابغة العصر الحديث في فن الحرب) وحير المؤرخين كلهم . ذلك أن العرب على ما امتازوا به من الكرم والشجاعة والوفاء والعزة والاباء ، كانوا في جاهليتهم بداة متفرقين ، وجاهليين وثنيين ، منقسمين على أنفسهم ، مختلفين فيما بينهم ، لا يعرفون إلا جامعة القبيلة ، ووحدة العشيرة ، فاذا فخروا فبها يفخرون ، وإن دافعوا فعنها

(١) حضارة العرب لأسعد داغر ٢٥٦

(٢) المذهب الصحيح في القرون الوسطى هو ماذهب اليه المؤرخ الألماني (شبنكلر) وغيره من أن هذا التقسيم إلى قرون قديمة ووسطى وحديثة — إن صح وقبل — فلا يطلق على غير أوربة ، ولا علاقة له بالشرق ، لأن لكل حضارة ميزات خاصة ، ومن الخطأ الجسيم سحب صفات القرون الوسطى على الشرق المسلم الذي كان إلى ذلك العهد في ذروة الرقي

يدافعون . . . إذا وجد العربى من القبيلة قافلةً من غير قبيلته ، كان فى حل من انتهاب مالها ، وقتل رجالها ، لا حكومة تنظم أمورهم ، ولا دين يردعهم ، إلا ديناً مضحكا سخيفاً ، دين من يتخذ رباً من التمر ، فاذا جاع أكله ، كما (أكلت حنيفةُ ربها . . .) ، أو من ينحت من الصخر صنما ، ثم يعكف عليه عابداً داعياً ، أو من يعبد الشجر والحجر . وكانوا يخشون كسرى ، ويرهبون قيصر ؛ وكان ملوكهم فى الحيرة والشام تبعاً للفرس والروم وجنداً لهما ، يضربون بعضهم ببعض ، ليذهبوا هم بالغنم ويعود العرب بالغرم ؛ وكان اتحاد قبيلتين اثنتين كبكر وتغلب فى طاعة كليب ، أو قيس والسكون فى جيش قيس بن معدى كرب حادثاً عجيباً يكسب صاحبه فخر الأبد ، وأمراً نادراً يلبث حديث الناس أياماً وليالى . . . فكيف يتحد العرب كلهم ، عدنانيهم وقحطانيهم ، ويسيرون فى صف واحد ، يقدمهم رجل واحد ، حتى يواجهوا جيوش كسرى وقيصر التى يهابونها ويرهبونها ، ثم يضربونها الضربة القاصمة للظهر ، فاذا انجلى غبار المعركة نظرت فاذا المعجزة قد ظهرت على أتمها ، وإذا الأرض قد بُدلت غير الأرض ، وإذا فارس الوثنية ، وسورية النصرانية ، ومصر الرومانية ، قد محيت كلها محواً ، وقامت مكانها أمم إسلامية فى فارس وسورية ومصر ، كأنما هى لاخلاصها للعربية والاسلام لم تكن يوماً من الأيام على غير الاسلام ؟

أكان هذا الانقلاب ما بين ليلة وضحاها . . . أكان هذا التبدل الذى تقلقل فى صميم الأمة العربية فغير كل شىء فيها وأنشأها إنشاء جديداً لأن رجلاً قام فى مكة ، يتلو كتاباً جاء به ؟ أيقوى رجل مهما كان شأنه على مثل هذا العمل ويكون له فى تاريخ العالم ومستقبل البشرية هذا التأثير ؟

هذا هو اللغز الذى حير المؤرخين من الغربيين ، ولم يعرفوا له حلاً معقولاً !

على حين أن الأمر واضح والسبب ظاهر ، ذلك أن هذا الأمر لم يكن عمل رجل عظيم من عظماء الناس ، ولكنه عمل الله جلّت قدرته ، أظهره على يد سيّد أنبيائه ، وخاتم رسله ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

ذلك أن « الفتح الاسلامى » معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم

* * *

هذا وإن من الخطأ أن نعدّ الفتح الاسلامى ، مثل ما نعرف من فتوح الأمم المختلفة فى الأعصار المتباينة ، لأن للفتح الاسلامى طبيعة خاصة به تجعله ممتازاً عن سائر الفتوح ، وتنشىء له فى التاريخ باباً خاصاً ، ذلك أن كافة الفتوح إنما كانت الغاية منها ضمّ البلاد المفتوحة إلى أملاك الفاتحين ، والانتفاع بخيراتها ومواردها ، لا نعرف فتحاً يخرج عن هذا المبدأ إلا الفتح الاسلامى ، فلم تكن الغاية منه ضمّ البلدان الى الوطن الاسلامى . وامتصاص دماء أهلها وأموالهم ، واستغلال مواردها الطبيعية وخيراتها ، ولكن غايته نشر الدين الاسلامى ، والسعى لاعلاء كلمة الله ، وإذاعة هدى القرآن فى الأرض كلها ؛ فكانوا كلما وطئوا أرضاً عرضوا على حكومتها وشعبها الاسلام ، فأن قبلوا به واتبعوه ونطقوا بكلمة الشهادة انصرفوا عنهم وعدوهم إخوانهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، لا فرق بين أمير المؤمنين وآخر مسلم فى أقصى الأرض ؛ كلهم سواء فى الحقوق والواجبات [1] ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وإن لم يقبلوا بالاسلام عرضوا عليهم الجزية ، وهى أقل بكثير مما كانوا يدفعونه الى ملوكهم وأمرائهم ، وصاروا ذميين لهم ذمّة المسلمين ، وأعطوهم الحرية فى أمور دينهم ودنياهم ، وتعهدوا لهم بالأمن الداخلى والخارجى . وإن أبوا أن يعطوا الجزية حاربوهم . . . ثم لم يكرهوا أحدا على الاسلام ، لأن فى صحة الاسلام وفوائده فى الدنيا والآخرة ما يغنى فى الدعوة اليه عن السيف . وما (دين محمد دين السيف) كما يهتف العامة والجاهلون ، ولكنه دين العقل والمنطق والعلم ، ، والمسلمون عامة دعاة مرشدون ، ولكنهم دعاة أقوياء ، يحملون القرآن بيد ، والسيف بالأخرى ، فمن قبل فما كانوا ليحاربوه ، ومن أبى وحاربهم أدّبوه حتى يرجع الى الحق ، ويجنح الى السلم

ثم إن معاملة المسلمين للذميين ، ووفائهم بعهودهم ، وصدق وعودهم وكرمهم وتسامحهم الذى شهد به الأصدقاء والأعداء ؛ وصار أشهر من أن يذكر ما يؤكد طبيعة « الفتح الاسلامى » ويرفعه عن أن يقاس به فتح آخر !

وهذه هى التواريخ فاستقروها واحكموا !

(بغداد) على الطنطاوى

(١) فى كتاب (عمر بن الخطاب) هذا فصل عن طبيعة الحكومة الاسلامية وحقيقة الخلافة فليراجع